

المسكونية: بعض المفاهيم الكنسية

الأب/ لويس مونيس

لأجل فهم فكرة المسكونية يجب معرفة ما تُعلِّمه الكنيسة عن ذاتها. فكثيرًا ما يعود عدَمُ الفهم إلى افتقاد المعرفة الصحيحة للحقائق الأساسية. لذلك نُقدِّم فيما يلي بعض العناصر، مُستخدِمين في ذلك نُصوصًا من تعليم الكنيسة الرَّسْمِي.

بعض المفاهيم حول الكنيسة

في قراره عن "الحركة المسكونية"، يُعلِّم المجمع الفاتيكاني الثاني ما يلي:

وحدة وأحادية الكنيسة.

وإنَّ الرب يسوع، بعد إذ رُفِعَ على الصليب ثمَّ دخل في المجد، أفاض الروح الذي كان قد وعدَ به. وبه دعا وجمع في وحدة الإيمان والرجاء والمحبة شعب العهد الجديد الذي هو الكنيسة على حسب تعليم الرسول: إنَّه ليس سوى جسدٍ واحدٍ وروحٍ واحدٍ، كما أنَّه ليس إلا رجاءً واحدٌ في ختام الدعوة التي دُعيتُم: فالربُّ واحدٌ، والإيمانُ واحدٌ، والمعموديةُ واحدةٌ" (أف ٤: ٤-٥).

ولكي يُقيم المسيح كنيسته المقدسة في كلِّ مكانٍ حتى مُنتهى الدهر، ولى هيئة الرُّسل الاثنى عشر مُهمَّةَ التَّعليم والإرادة والتقدیس. واختارَ منهم بطرس الذي، بعد ما شهَّد له، قرَّرَ أن يبني كنيسته عليه؛ ووعدَه بمفاتيح المُلْكوت؛ ثمَّ إنَّه بعدما أثبتَ له الرُّسولُ حُبَّه ائتمنه على جميع النَّعاجِ يثبَّتُها في الإيمان، ويرعاها في وحدةٍ كاملة، فيما يسوع المسيح يظلُّ، هو نفسه إلى الأبد، رأسَ الرَّاويةِ الأعظم وراعي نفوسنا.

ثمَّ إنَّه بالدعوة بالإنجيل بأمانة على يد الرسل ثم على يد خُلَفائِهِم - أي الأساقفة برئاسة من هو خليفة بطرس - وبتوزيع الأسرار، والحكم بمحبة بقيادة الروح القدس وفعله، يريد يسوع المسيح لشعبه أن ينمو، وأن يحقق الشركة في الوحدة بالشهادة بالإيمان الواحد، وبالقيام المشترك في العبادة الإلهية، وبالاتفاق الأخوي في أسرة الله.

ذلك هو سر وحدة الكنيسة المقدس، في المسيح وبالمسيح، بفعل الروح القدس الذي يحقق تنوُّع الخِدْم. وإنَّ الغرار (المثل) الأسمى لهذا السر ومبدأه هما وحدة الأقانيم الثلاثة، الأب والابن والروح القدس، في الله الواحد.

وفي كنيسة الله هذه الواحدة الوحيدة ظهرت منذ البدء بعض انقسامات استنكرها الرسول بشدة كشيء يستوجب الشَّجَب؛ وفي غضون القرون اللاحقة وقعت انشقاقات أشدَّ حُطورة، وانفصلت طوائف ذاتُ بالٍ عن شركة الكنيسة الكاثوليكية التامة بذنب أفراد أحيانًا من هذا الفريق أو هذا.

ومن ثمَّ فإن هذه الكنائس والطوائف المنفصلة لا تخلو البتَّة، على كوننا نعتقد أنها مَشوِّبة بالنقص، من المعنى والقيمة في سر الخلاص. ذلك بأن روح المسيح لا يَسْتَنكف من استخدامها كوسائلٍ خَلاصٍ تَنبُع قُوَّتُها من مِلء النعمة والحقيقة الذي أُوتِمت عليه الكنيسة الكاثوليكية.

بيدَ أنَّ أخوتنا المنفصلين، سواء من حيث هم أفراد أو مجتمعون في طوائفهم أو كنائسهم، لا ينعمون بهذه الوحدة التي أراد يسوع المسيح أن يُؤْتِمها جميعَ الذين جَدَّد ميلادهم وأحياهم ليكونوا جسداً واحداً لحياةٍ جديدة، والتي يَشهد لها الكتاب المقدس وتقليدُ الكنيسة المُكْرَمة. ذلك أنه بكنيسة المسيح الكاثوليكية وحدها، التي هي "وسيلةُ عامة للخلاص"، يُمكن الحُصول على مِلء وسائل الخلاص. فإنَّ الهيئة الرسولية التي بطرس رأسُها، هي وحدها، بحسب إيماننا، قد أُوتِمت على جميع غنى العهد الجديد، لتكون على الأرض جسداً واحداً للمسيح الذي ينبغي أن يندمج به مِلء الإندماج جميعُ الذين أمسوا من شعب الله. وهذا الشعب وإن ظل، في غُضون سفره على الأرض، مُعَرَّضاً في أعضائه للخطيئة، يواصل نَماءه في المسيح، ويقوده الله بِرِفْق بحسب مقاصده الخفية، إلى أن يَبْلُغ سعيدها، في اورشليم السماوية، مِلء المجد الأبدي كاملاً.

ويقول لنا إعلان "الرَّبُّ يَسوع":

على المؤمنين أن يعترفوا بأن هناك تَواصلاً تاريخياً - مرتكزاً على التسلسل الرسولي من الكنيسة التي أسسها إلى الكنيسة الكاثوليكية: "هذه هي كنيسة المسيح الواحدة [...] التي سلَّمها مخلصنا بعد قيامته إلى بطرس ليكون راعيها (يو ١٧/٢١)، وأوكل أمرها إليه وإلى سائر الرسل كي ينشروها ويسوسوها (متى ٢٨/١٨...)"، والتي أقامها دومًا عامودَ الحق وقاعدته (١ تيم ٣/١٥). هذه الكنيسة المؤسسة والمنظمة كمجتمع في هذا العالم قائمةٌ في الكنيسة الكاثوليكية ليسوسها خليفة بطرس والأساقفة المتَّحدون معه بالشركة" (نور الأمم ٨٠). بهذا الكلام (قائمة في الكنيسة الكاثوليكية)، أرد المجمع الفاتيكاني الثاني أن يُعلن حقيقتين عقائديتين: من جهة، إنها بالرغم من انقسام المسيحيين تبقى كنيسة المسيح قائمة بتمامها في الكنيسة الكاثوليكية وحدها؛ من جهة ثانية، "هناك عناصر عديدة لحياة النعمة والحقيقة خارج هذه الأطر" (المرجع السابق؛ وليكونوا واحداً، ١٣؛ ونور الأمم، ١٥؛ واستعادة الوحدة، ٣) أي في الكنائس والجماعات الكنسية التي لا تَنعَم بَعْدُ بالشركة الكاملة مع الكنيسة الكاثوليكية. لكن يجب التأكيد، بالنسبة إلى هذه الكنائس والجماعات، أن "قوتها تَنبُع من كمال النعمة والحقيقة الذي أُوكل إلى الكنيسة الكاثوليكية" (استعادة الوحدة، ٣).

هناك إذن كنيسة واحدة نَجدها في الكنيسة الكاثوليكية التي يسوسها بطرس والأساقفة المتحدون معه بالشركة. والكنائس التي تبقى متحدة بالكنيسة الكاثوليكية برباطات حميمة، كالتسلسل الرسولي والإفخارستيا الصحيحة، وإن لم تكن بشركة كاملة معها، هي كنائس خاصة حقيقية. لذا فكنيسة المسيح حاضرة وفاعلة في هذه الكنائس بالرغم من غياب الشَّرَاكة الكاملة مع الكنيسة الكاثوليكية الناتج عن عدم قبولهم للعقيدة الكاثوليكية القائلة بأولية بطرس التي تنعم بها فعلاً بالنسبة إلى الكنيسة جمعاء وفقاً للإرادة الإلهية.

وعلى العكس، فالجماعات الكنسية، التي لم تحتفظ بالأسقفية الصحيحة ولا على جوهر الإفخارستيا الأصلي والكامل، ليست كنائس بالمعنى الأصلي، ومع ذلك فالذين قبلوا سرّ العماد في هذه الجماعات مُتَّحِدُونَ بالمسيح بالعماد، وبذات الفعل هم في شراكة وإنْ ناقصة مع الكنيسة. إن العماد موجّهٌ أساسًا إلى اختيار مِلء الحياة في المسيح، وذلك بشهادة كاملة بالإيمان وبالإفخارستيا وبمِلء الشراكة مع الكنيسة.

"لذا فلا يَحِقُّ للمؤمنين أن يتصوِّروا كنيسةً المسيح كجماعة فحسب - منقسمة على ذاتها، نعم ولكنها محافظة على شيء من الوحدة -، ككنائس وجماعات كنسيّة؛ كما لا يحق لهم القول بأن كنيسة المسيح لم تعد قائمة في مكان ما بحيث تصبح هدفًا يجب البحث عنها في كل الكنائس مشتركة" (مجمع عقيدة الإيمان، سرُّ الكنيسة، ١). وفعلاً "عناصرُ تلك الكنيسة المعلنة تتوفّر موحّدة في كمالها في الكنيسة الكاثوليكية، وبدون هذا الكمال في الجماعات الأخرى" (ليكونوا واحدًا، ١٤). "وبالتالي فالكنائس والجماعات المنفصلة نفسها - مع أننا نعتقد أنها مُصابة بتلك الشوائب - لا تخلو أبدًا من المعنى والقيمة في سرّ الخلاص. فَرَوْحُ المسيح لم يتمنّع عن استخدامها بمَثابة وسائل خلاصية تنبُع قوَّتُها من كمال النعمة والحقيقة الذي أوكلَ إلى الكنيسة" (استعادة الوحدة، ٣).

نرى إذًا أن المسيح أسّس كنيسته على بطرس مع الرسل. وفي هذه الكنيسة أودع مِلء وسائل الخلاص. تلك الكنيسة الجامعة تحيا في "الكنائس الخاصة"، أي في الكنائس المحليّة المجتمعة حول أسقفها.

الكنيسة الجامعة سبقت في وجودها - سبقت كيانياً - كلَّ الكنائس الخاصّة فحين نشأت الكنيسة الجامعة كانت تُوجد كنيسة خاصة واحدة فقط، وهي كنيسة أورشليم.

مع مرور القرون اللاحقة، ظهّرت انقسامات، وانفصلت جماعاتٌ غيرُ صغيرة عن الشّركة الثّامة التي في الكنيسة الكاثوليكية.

البعض من تلك المجموعات استمرَّ مُلتقًا حول أسقفٍ، فتحولوا إلى "كنائس خاصة ليست في شركة كاملة مع الكنيسة الجامعة"؛ بينما فقدَ البعض الآخر التعاقب الرّسولي، إلى أن فقدوا الأسقفية، ولا يُمكن فعليًا أن يُسمّوا "كنائس"، وبالتالي نحن ندعوهم بـ "جماعات كنسيّة".

لذلك فالمجمع يؤكّد أن "الكنيسة الجامعة تدومُ في الكنيسة الكاثوليكية". إنَّ تعبير "تدومُ" له في هذا الإطار معنى أوسع من مجرد "توجد". إنه يُزوّدنا بغنى خاصٍ في موضوعنا الحالي، ويُتيح لنا أن نُفسّر المسكونية. إنه يعني أن جميع عناصر الخلاص تُوجد في الكنيسة الكاثوليكية؛ ويعني أيضًا أنّ الكنائس الأخرى تُوجد فيها بعض الوسائل الخلاصية، ولكنها ليست كاملةً فيها.

بقدر ما تُوجد تلك العناصر في سائر الجماعات المسيحية، بهذا القدر تكون كنيسة المسيح الواحدة موجودة ناشطة فيها.

لدينا إذا الكنيسة الكاثوليكية ومعها كنائسُ أخرى خاصَّةٌ تتمتَّعُ بوحدةٍ جُزئيةٍ مع الكنيسة الكاثوليكية؛ وبالقدر الذي تحتوي تلك الكنائس على عناصرٍ من الحقيقة - في الكنائس الأرثوذكسية مثلاً نجد عناصرٍ من الحقيقة أكثر ممَّا نجده في الكنائس البروتستانتية -، بهذا القدر تكون كنيسة المسيح الواحدة موجودة وناشطة فيها.

خارج الجماعة الكاثوليكية لا وجودٌ للحَيَزِ الكَنَسِي .

بالنسبة لتعبير "كنائس أخوات" يُعلِّمنا مَجْمَع عقيدة الإيمان ما يلي:

المعنى المقصود بالكنائس الأخوات هو فقط الكنائس الخاصة (أو تَجْمَعَات من كنائس خاصة مثل البَطْرِيَكِيَّات والمِتْرُوبُولِيَّات). يجب أن يَظَلَّ واضحًا دائمًا، حتى في حالة استخدام تعبير "كنائس أخوات" بهذا المعنى الحَصْرِي، أن الكنيسة العامَّة، الواحدة والمقدسة والجامعة والرسولية، ليست أختًا بل أمًّا لكل الكنائس الخاصة.

يُمكن أيضًا الحديث عن "كنائس أخوات" - بالمعنى الصريح للتعبير - عندما نقصد كنائس خاصة كاثوليكية أو غير كاثوليكية؛ وبالتالي فكنيسة روما الخاصة يمكن أن تُدعى أختًا لكل الكنائس الخاصة. لكن، وكما قد ذكَّرنا، ليس من الإمكان أن نقول بالضبط بأن الكنيسة الكاثوليكية أختٌ لكنيسةٍ خاصةٍ أو لمجموعةٍ من الكنائس. المسألة ليست في الألفاظ فقط، بل خصوصًا في احترام حقيقة أساسية للإيمان الكاثوليكي، ألا وهي وحدانية كنيسة يسوع المسيح. تُوجَد فعلاً كنيسةٌ واحدة، وبالتالي فكلمة "كنائس" بالجمع يمكن أن تعود فقط إلى الكنائس الخاصة.

في النهاية لا بُدَّ أن يكون حاضرًا في الذهن أن تعبير "كنائس أخوات" - بالمعنى الصريح، وكما هو مشهود له في التقليد المشترك للغرب والشرق - يمكن تطبيقه حصريًا فقط للجماعات التي حافظت على شرعية الأسقفية والافخارستية.

بين تلك "الكنائس الخاصة" و"الجماعات الكنسية" تَبَرُّزُ:

- ١- الأرثوذكسيَّة: الناتجة عن انشقاق بداية الألفية الثانية.
- ٢- قبل تلك أيضًا، انفصلت مجموعة كبيرة هي "الكنائس الشرقية القديمة"، التي رَفَضَتْ مَجْمَعِي خَلْقِدُونِيَّة وَأَفْسُس، ومنها الكنيسة القبطية، والأشورية والأرمنية والأثيوبية.
- ٣- الإصلاح البروتستانتي.

من ناحيةٍ أنَّ هؤلاء قد انفصلوا فهُم "مُنشَقُونَ". من ناحيةٍ أنهم ابتعدوا عن بعضِ عقائدِ الكنيسة الكاثوليكية فيسْمُونَ "هَرَاتِقَةً". ولكن من المُؤكِّد أنَّ دراسةً متعمِّقةً للمشكلة تكشف أنه، في أحيانٍ كثيرة، تكون الاختلافات ثقافية أكثر منها عقائدية. كثيرًا ما جرى سوءُ التفاهم حول التَّعبيرات، ثم ساءت المشكلة بمواقف صارمة غير متساهلة من كلا الطرفين.

الفِئتان الأوليان هما كنائسُ خاصة (الأرثوذكسية والكنائس الشرقية القديمة) قد ابتعدت عن الشركة. لَيْسَتَا كنائس "أخوات" بالنسبة للكنيسة الجامعة، بل بناتٍ لها.

إنما البروتستانت فَقَدُوا التعاقب الرسولي. ليس لديهم أساقفة، وبالتالي فليس لهم كهنة ولا أسرار؛ لهذا فليسوا بكنائس خاصة بل هم "جماعات كنسية".

من البروتستانت (عُموماً) انْفَكَّت البشيع، التي لا تُقَارَن بالكنائس السابق ذكرها، ولا حتى بالجماعات الكنسية التي خرجت هي عنها. إنها مجموعات شديدة التَّعَصُّب وأصولية، وقد نَزَعَتْ أَنْفُسَهَا من البروتستانت والآن - في مُعْظَم الحالات - لم تَعُدْ مَسِيحِيَّة بعد. أَنْ يَكُونَ المَرْءُ مَسِيحِيًّا يعني أَنْ يَعْتَقِدَ بالثالوث وبالتجسُّد.